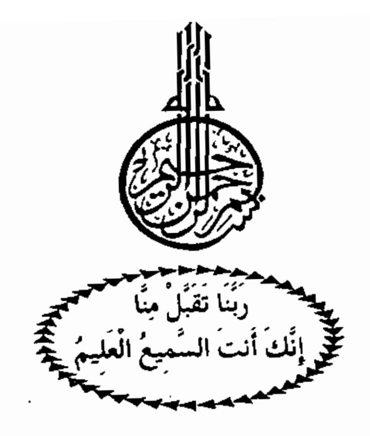
كتاب أسْباب الظَّفَرِ والانْتِصارِ



الطبعة الأولى

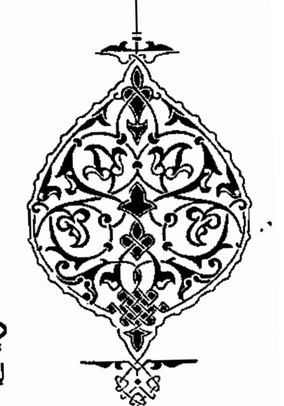
٢٠١١

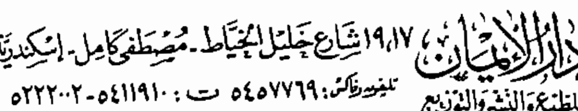
رقم الإيداع

١٦٠٥١/ ٢٠١٠

الترقيم الدولي

977-331-342-5





كتاب

أسْباب الظَّفَرِ والانْتِصارِ

تأليف

ابن الحنبلي

أبي الفرج عبد الرحمن بن نجم بن عبد الوهاب بن عبد الواحد

(555-634 هـ)

يطبع لأول مرة بالاعتماد على نسخ خطية

تحقيق ودراسة

أحمد العاقور






بسم الله الرحمن الرحيم

محتويات الكتاب

1- 76 القسم الثاني/ النص المحقق

(كتاب أسباب الظفر والانتصار لابن الحنبلي)

إلى هــؤلاء

" الناشدين " طــوق نجاة ...

وإلــى أولئــك

" الناشبين " بــه ...

أهدي هذا العمل



المُقَدِّمَة

الحمد لله ربِّ العالمين؛ نَصرَ عبدَه وأعزَّ جندَه وهَزَمَ الأحزابَ وحده، والصلاةُ والسلام على محمدٍ؛ نبيِّ الرحمة ونبيِّ الـمَلْحَمَةِ، وآلِ بيته وصحابته، والذين اتبعوه وساروا على دَرْبه إلى يوم الدين، وبعد؛ فقد صَدَقَتْ نبوءةُ النبي ﷺ بصيرورة أمة الإسلام من مركز الريادة والقيادة إلى التبعية، ومن وظيفة الشهادة على الخلق إلى عبث التَّسَكُّع خلف زخرفهم في منعَرَجات التِّيه، ومن الوسطية إلى التطرف والشذوذ، ومن علوِّ الإيمان وعزته إلى الانحطاط والذل، ومن مَدِّ أطْناب العدل على ربوع المعمورة، والانتشاط في فتح قلوب الناس وبلادهم، إلى الانكماش والقُبُوع؛ لِتَغْدُو جموعهم نهبةً مستباحةً يُتداعى عليها من كل حَدَبٍ وصَوْبٍ.. ذلكم في نَصِّها الذي يرويه ثوبانُ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا**»، قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «**أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنْ تَكُونُونَ غُثَاءً كَغُثَاءِ السَّيْلِ: تُنْتَزَعُ الْمَهَابَةُ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ، وَيُجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنُ**»، قَالَ: قُلْنَا: وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: «**حُبُّ الْحَيَاةِ وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ**»[1].

---

(1) حديث صحيح: رواه أحمد في: المسند، 37/ 82 (برقم: 22397).

وإذا كان أهل مكة (المكان) أدرى بشعابها، فإن من عايش الغثائية (الحدث المرتهن بزمن) أقدر على توصيفها، هذا بالطبع إذا تمت هذه العملية في منأى عن تحكمات مجهرها المعطوب، وفي مأمن من التأسيس على مرتكزات عقدية مصابة بعدواها؛ ومن هذه الموقعية فحسب يمكن الاطمئنان إلى شمولية هذه النبوءة وإغنائها المرء عن مئونة هذا الصنيع، من حيث كونها ترسم بدقة منحنى الصعود والهبوط على خارطة ميزان القوى الدولي، وترتب دورات التاريخ وفقا للفهم المتعمق عن المعايير المبنية على ثنائيات الشكل والمضمون أو الكم والكيف، وتكثف النعوت المتكاثرة لأمة، ستستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير؛ لتعبأ في كلمة مركزية موحية: غثاء، وتؤطر الداء الفتاك الذي سيستشري في كيانها، وتهدي ولو بالإيحاء إلى سبيل النجاة. سيتجلى ذلك بصورة أوضح إذا حاولنا أن ننفك عن سياق نص النبوءة المصطبغ بصبغة تعليمية، فرضتها طبيعة الخطاب المتخذ من جماعة المتلقين المتفاعلين محرضات لاستكمال مفرداتها، لنتصل بنصها المتكون في ذهن ساع إلى ربط الأحداث بخطها الزمني، وإلحاق المقدمات بنتائجها بصورة منطقية، فسوف نكتشف حينئذ أنه النص الموازي للحديث حالة قراءته قراءة منكّسة؛ من آخره إلى أوله؛ بدءا من تهيب موارد بذل النفس لله وانتهاء بوقاحة الذئاب البشرية المتناوبة على قصعتها.

سيكشف لنا التَّقَصِّي، للأسف الشديد، أنَّ أدران غثائية أمة الإسلام قد سكنت لا ميدانا واحدا من ميادين الحياة؛ بل تمددت لتشمل الميادين كلها، كما سيكشف لنا أيضا أن هذه النبوءة كانت كغيرها من النبوءات: ترسم الخطوط العريضة أمام من سيُعاين التفاصيلَ الأكثر فداحةً، ليلقي هذا بدوره على أكتاف الربانيين، بحسب القدرات والملكات، أعباءَ السعي إلى انتشال الأمة من كبوتها المقيِّدة، ومَدِّ جسور الاتصال بينها وبين ينابيع الوحي الرائقة التي لم تُكَدَّرْ، وإحياءِ نماذج التمكين من القرون الأولى؛ لتَستنشِقَ الجموع الحياة من جديد، وتستبدلَ بهواء الذل والانكسار الذي أَزْكَمَ الأنوفَ هواءَ الفخر والعزة، مع وجوب التركيز الواعي، في مثل ظرفنا، على مواطن الانفراج بين الأجيال المتعاقبة؛ لتحديد ما يُقبل من المستجَدَّات بحكم الاستجابة الضرورية للتطوير والتجديد، وما يُرفض منها بحكم الخروج عن النهج السوي.

مِنْ هنا كانت فرحتي بهذا المخطوط، الذي ساقه الله إليَّ دون تَشَوُّفٍ مني.. لقد فرحتُ به حقًا، على قِلَّة عدد ورقاته وضآلة حجم استيعابه موضوعَه؛ لأنه يُعطي صورةً لما كان عليه حال المسلمين في عصور الزَّهْو، وصورةً لإجابتهم عن هذا السؤال المؤرِّق: ما أسباب النصر؟! ومهما كنا سنختلف مع المصنِّف، أو نرى حديثه لبساطته مغايرًا لواقعنا المعقَّد، فسوف نجد في طيَّات حديثه ما ينهض هاديًا

نحو العلو والعز والرفعة، ولذا فقد بذلتُ جهدي في إقامة النص وتصحيحه وضبطه وعزوه إلى مصادره والتوسُّل بمراصدَ شتى تقوِّمه؛ حتى يَخرُجَ الكتاب في صورة يغلب على الظن أنها الصورة التي خلَّفها لنا المؤلِّف، أو تكاد، كما ألحقت به كشافا يذلل مادته وييسر التعامل معها، وقدمتُ له بدراسةٍ تبين عنه وعن صاحبه، ربما سيراها بعض القارئين مسهَبَةً، وعُذْري في ذلك ما وجدته من خُمولِ ذكر ابن الحنبلي بين المعاصرين، وما أنا بصدده من تقديم كتاب لا يُدرج في مؤلفاته، وربما سيراها آخرون مُوجَزَة، ومبرري أني أكتب دراسةً بين يَدَي كتاب لا يشغلني إلا ما يتصل به بسبب؛ فإن كان من توفيق فهذا ما رجوتُ له، وإن كان من خطإٍ أو إخفاقٍ، فلا أَوْحَشَ اللهُ من نُصْحِ ناصحٍ. وعلى ذِكْرِ الناصحين؛ فقد يطيب لي هنا، قبل أن يُرفع القلم، أن أسجل حمدي للرَّب العَلِيِّ؛ أن قَيَّضَ لهذا الكتاب منهم، قبل أن تصافح صفحاته أيادي الناس، مَنْ تضيق أيَّامي عن أداء حقوقهم عليه: عِنايَةً به وبنصوصه، وتوفيرًا لما لجأ إليه من مصادر، وتقويمًا لما اعْوَجَّ منه ونَدَّ عنه، دون مَنٍّ ولا مَلَلٍ، حتى ليُخَيَّل إلي أنهم سيرددون حين يتناولونه مطبوعًا: "هذه بضاعتنا رُدَّت إلينا".. إليهم جميعًا أسوق الشكر السخي، وإلى القُرَّاء أَزُفُّ بالنيابة عنهم جهدَهم المبذول.

أحمد العاقور

القســـم الأول

الدّراسة

ابن الحنبلي
وكتابه أسباب الظفر والانتصار

أحمد العاقور



- 1 -
المخطوط

1 / 1 / وصف النسخ الخطية :

بعذ بذل الوُسع في عمليات البحث والتنقيب عن نسخ الكتاب الخطية، وفّقْتُ في تحصيل نسختين؛ تحملان العنوان نفسه: "كتاب أسباب الظفر والانتصار":

- الأولى: **نسخة دار الكتب المصرية** (رقم الحفظ: 396 مجاميع عربي، رقم الميكروفيلم: 4556)، التي رمزنا لها بالرمز: ‹أ›، وهي نسخة نفيسة؛ إذ تقع في مجموع من المجاميع المرقومة برسم خزانة السلطان المملوكي قايتباي، الذي تولى السلطنة من عام 872هـ إلى سنة وفاته 901هـ، ونقرأ من رأس صفحة غلافها ما يشير إلى أنه هو من وقفها على طلبة العلم، وجعل مَقَرَّها في مدرسته، ولو صحت قراءتنا للكلمة التي تحدد مكانها بـ"الصحراء"؛ فسوف نفهم من ذلك أن هذه النسخة الخطية استجلبت من خزانة الكتب الملحقة بمدرسته المبنية بالجبَّانة الشرقية، ضمن أعمال معمارية اشتهرت باسم صحراء قايتباي، وهي الأعمال التي يقول عنها السخاوي (ت: 902هـ) في تاريخه: "وأنشأ بالصحراء بالقرب من الشيخ عبد الله المنوفي تربة

بالرونق البهج تفي، وبجانبها مدرسة.. وبها خزانة كتب شريفة جليلة منيفة"[1]. ونعود إلى صفحة الغلاف لنقرأ من رأسها أيضا أن السلطان قايتباي قد شرط ألا يخرج منها الكتاب إلا برَهْنٍ، وأشهد على ذلك عالمين أزهريين؛ لم يتكشف لي من هويتهما غير أن أحدهما من الحسينيين، فيما يبدو، والآخر ينتمي لإقليم الفيوم، كما لم أتبين تاريخ السنة التي شهدت هذه الواقعة؛ لكتابته بطريقة متداخلة، ولا يمنع هذا من أن نسعى لمقاربة التاريخ؛ بوساطة معرفتنا أن الشعائر الدينية قد ابتدأت في مدرسته المذكورة، على افتراض صحة انتساب المخطوط إلى خزانتها، في رجب من عام 879هـ.

تقع هذه النسخة في ستة وخمسين لوحة بنظام التصوير الميكروفيلمي، تشتمل اللوحةُ الواحدة منها على صفحتين متجاورتين أفقيا، وتحتوي الصفحةُ الواحدة على تسعة أسطر، مكتوبة بخطٍّ نسخي ممتاز مشكول، بوساطة قلم غليظِ الأُنْبوب منحرِف البرَايَةِ جيِّدِها، ومدادٍ تتخالف ألوانه، بحسب ظني، وتلقانا فيها الزخارف ذات البعد الوظيفي في سد الفراغ، ومن حين لآخر آثارُ الاستدراك المدرَج، الأمر الذي قد ينبئ عن أنها

(1) انظر: السخاوي: الضوء اللامع، 6/ 208، باختصار.

قد خضعت لقراءةٍ مقابَلَة، على أن النسخة يعتورها من حيث الكمال أن ناسخها، الذي لا نعرف عنه أية معلومات، قد أقحم فيها معارف لا تنتمي ألبتة إلى كتابنا، بل تنتمي، فيما يظهر، إلى كتاب آخر من هذا المجموع، هو كتاب: "الأجوبة المسكتة"، وهيَ معارف تحتل اللوحات الواقعة بين السابعة إلى الثانية والعشرين، الأمر الذي أدى إلى سقوط فقرة من فقرات الكتاب، كشف عنها وجودها في النسخة الآتي وصفها؛ ويعتورها من جهةِ التصوير ما يشبه أن يكون تداخلا بين الصفحات وأسطرها في اللوحات السبعة الأولى، ومن جهةِ الناسِخِ أنه يخطئ أحيانا في الضبط على مستوى بنية الكلمة وإعرابها.

- النسخة الأخرى: **نسخة مكتبة تشيستر بيتي** Chester Beatty Library الكائنة بدبلن؛ عاصمة إيرلندا الجنوبية (رقم الاستدعاء: 5/ 4733)، التي رمزنا إليها بالرمز ‹ب›، وقد كان اعتمادنا على مصورتها المحفوظة بمكتبة الإسكندرية (رقم الاستدعاء: 297.72) وأيضا بمكتبة إدارة المخطوطات بوزارة الأوقاف الكويتية (تحت رقم: 5/ 2673)، وهي نسخة ضمن مجموع يعود نسخه، فيما ذكرت هذه المكتبات، إلى القرن الثامن الهجري، ولئن كان النص الذي بين أيدينا لا يحوي هذه المعلومة، فقد يمكن أن ترشد النظرة المتمَرِّسة بالخط العربي

وأطوارِه المختلفة إلى أن زمن نسخها لا يتعدَّى القرنَ التاسع الهجري؛ على أسوإ تقدير.

تقع هذه النسخة في إحدى عشرة لوحة بنظام التصوير الميكروفيلمي، تشتمل اللوحةُ الواحدة منها على صفحتين متجاورتين أفقيا، وتحتوي الصفحةُ الواحدة على تسعة عشر سطرا، مكتوبة بخط نسخي معتاد واضح، يتأنق صاحبه أحيانا، خاصة في الكلمات المبرزة، قواعد خط الثلث، وتتفق مع النسخة الأولى في ظهور آثار الاستدراكات المنبئة عن مراجعتها من قبل ناسخها، ذلك الذي لا نعرف عنه أيضا أي معلومة، وتتميز نسبيا بدقتها فيما تلحقه بالكلمات من ضبط؛ وإن كان يعتورها آفات، يأتي على رأسها سقط الأوراق الذي أدى إلى سقوط بعض السبب العاشر وبعض السبب الرابع عشر والأسباب الثلاثة الواقعة بينهما، فيما يقدر بمقدار صفحتين من صفحاتها، وقد كشف عن ذلك بصورة مبدئية اختلال تتابع ترقيم الأسباب، وأيضا انقطاع سياق الكلام وفق التعقيبة المكتوبة في ذيل الصفحة، وحددناه بصورة دقيقة بوساطة مقابلتها بالنسخة الأولى، وتعاني رداءة التصوير في غير موطن منها، ومن أن ضبط الكلمات، على مستوى البنية والإعراب، لم يشمل إلا جزءا يسيرا جدا من النص.

بمحاذاة هاتين النسختين كانت هناك **نسخة ثالثة** بدار الكتب المصرية (رقم الحفظ: 2293 تصوف عربي، رقم الميكروفيلم: 32912)، وهي ليست نسخة لكتابنا بالمعنى التام لهذا اللفظ، وإنما هي مجرد **وثيقة ثانوية** أفادت في توليد حالة من الثقة في العمل الذي أقوم به؛ وأقصد بها ما وجدته من نسخة ناقصة لكتاب مجهول المؤلف والعنوان، يَشْرَكُ كتابَنا، بحسب ما يظهر، في معالجة موضوعه الرئيس: أسباب النصر، ويشير في مقدمته إلى أن بعض العلماء، دون أن يسمِّيهم، عَدُّوا من أسباب النصر ثلاثين سببا، وأنه سيقتصر في مختصَره هذا على خمسة منها تجنبا للإطالة، ونستمر في القراءة لنجد ما كتبه ابن الحنبلي تحت عنوان "فصل" (ص3) منقولا برُمَّتِه تقريبا، وبالمثل نجد السبب الأول منقولا، وإن كان يضيف صاحبه نصوصا أخرى إليه، تبين بالبحث عنها أنها تنتمي إلى كتاب الطرطوشي (ت: 520هـ): سراج الملوك؛ وللأسف لا تمنحنا هذه النسخة شيئا بعد ذلك ذا قيمة؛ إذ يأخذنا المجموع الذي تقع فيه إلى موضوعات شتى متفرقة لا يربط بينها رابط، وإذا علمنا أن هذه النسخة مستجلبة من مصدر مخطوطتنا نفسه: جامع قايتباي، وأنها مكتوبة في ظني بوساطة الناسخ نفسه، الذي لا يستبعد أن يكون هو مؤلِّفَها أيضا؛ إذ يتشابه الخط فيهما إلى حد كبير- فقد ندرك قيمتَها في توليد ارتياح للنتائج التي سنبثها في توثيق نسبة المخطوط، وللعدد

ثلاثين الذي تنتهي إليه النسختان، ولقراءتنا بعض نصوصه، وأخيرا في توسيع دائرة احتمالات القراءة في موطن وحيد.

1 / 2 / توثيق نسبة المخطوط :

لئن كانت الأعرافُ العلمية قد تغتفر أحيانا تجاوزَ عملية توثيق نسبة كتاب ما لكاتب بعينه؛ بسببٍ من أنها قد تتراءى دَرْبًا من الترف العلمي وتحصيل الحاصل، فإن هذا هو الشيء الذي لا ينسحب على حالتنا؛ نظرا لأن الكتاب الذي نقدمه اليوم للقارئين: "أسباب الظفر والانتصار" لم يَرِدْ منسوبا إلى الناصح ابن الحنبلي، في أي مصدر أتيح لي من المصادر التي عُنيت بالترجمة له أو اهتمت برصد كتب التراث العربي المخطوط والمطبوع(1). لقد كان الطمعُ أثناء البحث والاشتغال بنصوص الكتاب يتملكني في أن أجد نصًّا من بينها منقولا لدى واحد من أسلافنا؛ حتى أستطيع توثيق نسبة الكتاب بصورة تقترب من اليقين، لكنه الطمع الذي كان يغترف من

---

(1) إضافة إلى ما سيأتي من مصادر ومراجع، أثناء حديثنا عن المؤلف، سوف نكتفي هنا بالإشارة إلى: حاجي خليفة: كشف الظنون، ص75- 77، 1389، والباباني: إيضاح المكنون، ص68، 69، 266، وهدية العارفين: 2/ 524، وكحالة: معجم المؤلفين، 2/ 125، ومحمد عيسى صالحية: المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع، 2/ 230، وعمر عبد السلام تدمري: المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع؛ المستدرك على الجزء الثاني، ص118.

أحلامِ اليقظة؛ إذ من المستبعد أن يؤبه لهذا الكتاب الصغير الحجم، وبالرغم من أنني عثرت على واحد منها بالفعل، قد مرت الإشارة إليه منذ قليل، فقد كان هذا نفسه سببا في أن أفيق من حلمي (طمعي)؛ إذ إنه للأسف الشديد كان ينقل عنه بعض نصوصه، لكن من دون أن يصرح باسم مؤلفه!

من هذا الذي ذكرنا يمكن فقط استثناء الفهارس الحديثة التي أعدتها بعض المكتبات لمقتنياتها ومخطوطاتها؛ ففي بعضها يجيء تصريح باسم مؤلفها[1]، وظاهر للمعنيِّين أن هذا وحده ليس ينهض دليلا مريحا مُرْضِيًا للثقة في صحة نسبة الكتاب، خاصة إذا علمنا أن بعض هذه الفهارس قد بدت متوقفة في شأن نسبته؛ كمثل فهرس دار الكتب المصرية الذي كتب مُعِدُّوه العبارةَ الآتية: "المؤلف الموثق: غير معروف"[2]، وخاصة إذا انضاف إلى ذلك ما تصنعه بنا صفحة

---

(1) مثل فهرس دار الكتب المصرية، وفهرس مكتبة تشيستر بيتي الأيرلندية، وعن الأخيرة فهارس مكتبة الإسكندرية بمصر، وإدارة المخطوطات بوزارة الأوقاف الكويتية، ومركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالجزيرة العربية، وجميعها فهارس إلكترونية تتوارد عليها نقائص الجهد البشري، من الخطإ والنسيان والوهم والأخذ أحيانا ببادئ الرأي.

(2) يمكن مراجعة الرابط الآتي على الشبكة العنكبوتية:
http://www.darelkotob.gov.eg/manuscript/manudetials.aspx?3026/6280/21224/180261/396.

الغلاف في النسختين الخطيتين، من توسيع دوائر الاحتمالات والظنون إلى حد كبير؛ إذ يجيء فيهما معرَّف المؤلف؛ بعد ضم البيانات إلى بعضها، على النحو الآتي: "شمس الدين شرف الإسلام فخر العلماء تاج المشايخ المعروف بابن الحنبلي"، وهي عبارة مضلِّلة حقا؛ إذ لا تساعد في تحديد اسم المؤلف أو عصره أو سنة وفاته؛ بل إنها تصرفنا، ولو بشكل وقتي، عن ابن الحنبلي عبد الرحمن بن نجم (ت: 634هـ) الذي يُنْعَت بناصح الدين أو بالناصح، لا بشمس الدين، في حين أنها تذهب بنا بعيدا إلى حيث أولئك المتكاثرين الذين حملوا هذا الاسم: "ابن الحنبلي"، وعبثًا سيظل الباحث يقرأ في صفحات حملت أخبارهم وسيرهم ومؤلفاتهم دون أن يبلغ مراده أو غايته، هذا إذا كنا سنفترض تفاؤلا أنه سيعود سالما من الخلط بينهم[1].

كان لابد إذن من تغيير زاوية النظر إلى الكتاب، برفض الوقوف عند حدوده التي تُؤَطِّرُه من خارجه؛ ومحاولة الاقتراب من مكوناته الخاصة، أملا في تضييق تلك الدوائر المتسعة، وتحقيق اليقين

(1) يقع بعض المؤلفين أحيانا في خلط بين أولئك الذين اشتهروا بابن الحنبلي، فينسبون مؤلفات بعضهم إلى بعض، ونكتفي هنا بالإشارة إلى نموذج واحد من هؤلاء هو: محمد عثمان بشير، في كتابه: الإمام يوسف عبد الهادي الحنبلي وأثره في الفقه الإسلامي، ص279.

والدقة في شأن نسبته، وفيما يأتي محاولة لسرد الخطوات التي مر بها النظر؛ بصورة تراتبيَّةٍ مُمَنْطَقَةٍ، حتى ولو لم تكن قد تنامت واقعا على هذا النحو:

- وجود نسختين خطيتين بين أيدينا للكتاب مَرَّ وصفهما، يعود نسخ الأولى منهما إلى القرن الثامن الهجري، بحسب ما ذكرت المكتبات المشار إليها، ويعود نسخ الأخرى إلى أواخر القرن التاسع الهجري، أو أول القرن العاشر على أسوإ تقدير- ينبئ عن مولد المؤلف قبل هذا التاريخ، ومن ثم استبعاد كل "ابن حنبلي" لاحق.
- يصرح المؤلف بالنقل عن شخصيات علمية معروفة، كان أقربهم إلى زمن النسخ ابن عقيل الحنبلي (و: 431هـ، ت: 513هـ) (ص60)، وإذا تغاضينا عن دلالة إردافه ذكره بقوله: "رحمه الله"، آخذين بالشك المحتمل في كونها مدرجة من قبل الناسخين، فقد يتأكد أن وفاة المؤلف لم تكن بحال من الأحوال قبل منتصف القرن الخامس، ومن ثم نتمكن من تنحية كل "ابن حنبلي" مات قبل ذلك.
- حكاية المؤلف عن بعض فقهاء العراق حادثة القتال بين طغرلبك السلجوقي ودبيس بن مزيد البدوي (ص10، 11)-

تؤكد ما ذهبنا إليه من ضرورة أن يكون قد مات فيما بعد منتصف القرن الخامس.

- توظيف المصنف لمصطلح "الديار المصرية" (ص52) بغرض الإشارة إلى إقليم مصر، سيَدْعَم هذه الفرضية؛ بل سيدعونا كذلك، ولو بصورة ظنية، إلى زحزحة سنة الوفاة الافتراضية ناحية سنة النَّسْخِ، بما يزيد على قرن من الزمان؛ لأن هذا المصطلح لم يستخدم، بحسب ما يذكر بعض الباحثين (حسن الباشا في كتابه: الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية)، إلا أيام دولة بني أيوب، وتحديدا أثناء تولي القاضي الفاضل (و: 529هـ ت: 596هـ) ديوان الإنشاء؛ أي في الثلث الأخير من القرن السادس.

- إشارة المؤلف إلى واقعة القتال بين الملك العادل الأيوبي وابن أخيه الملك الأفضل (ص51، 52) أمر يقطع، بصورة يقينية، أن المؤلف قد كان حيا في الثلث الأخير من القرن السادس؛ بل يجعلنا نمتد بسنة وفاته إلى ما بعد عام 596هـ، وهو العام الذي شهد هذه الواقعة، ونطَّرح كل من مات قبل هذه السنة ممن عرف بابن الحنبلي.

- هناك تغاير في أسلوب المؤلف السارد بين: إشارته إلى حادثة قتال طغرلبك ودبيس التي يوظف فيها عبارة "حكى لي"، وإشارته إلى حادثة قتال العادل والأفضل التي يستعمل فيها لفظة "حدثني"، وهو ملحظ يقترح علينا فرضيةَ أن يكون المؤلف قد شارك بصورة ما في الحادثة الثانية أو اتصل بمن شارك فيها أو على الأقل لقي من شهدها، دون أن يتوفر ذلك في الأولى التي فني أهلوها؛ فتناقلتها الألسنة حكاية، وهي افتراضات ستجد ما يَتَسَاوَق معها في سيرة واحد فقط ممن عرفوا بابن الحنبلي، هو ابن الحنبلي عبد الرحمن بن نجم (و: 555هـ ت: 634هـ).
- سنعتق من إسار الفرضية الأخيرة، وسنستمر في مقاربة نصوص المخطوطة؛ لتمنحنا شارَةً أكثر دلالة، وهي تصريحها بالاقتباس من كتاب لمؤلفها اسمه: "الإنجاد في الجهاد" (مثلا: ص16، 17)، وهو كتاب أطْبَقَتْ المصادرُ المختصة بهذا الشأن على نسبته لعبد الرحمن بن نجم، وإن كان الاطمئنان إلى ذلك ينبغي أن يمر على مَفْرَزَةِ الموازنة والمقايسة، التي يحتِّمها وجودُ كتاب آخر يحمل عنوان: "الإنجاد في أبواب الجهاد" لابن المناصف المالكي (و: 563هـ، ت: 620هـ)، الذي عاش تقريبا في المرحلة الزمنية لمؤلفنا، وإضافة إلى ما مر من دلائل سترشد إلى مسافة كبيرة بين الكتاب وابن المناصف (الأندلسي)؛ فقد تمت

هذه العملية طلبا للاطمئنان التام بوساطة التأكد من خُلُوِّ كتابه (تحقيق: سلمان آل مشهور ومحمد أبو غازي) عن الإحالات التي يحملها المخطوط الذي بين أيدينا.

- الآن؛ لقد صار لدينا يقين أو ما يشبهه في صحة نسبة هذا الكتاب إلى ابن الحنبلي عبد الرحمن بن نجم، لكنه سيبلغ التمام، على الأقل في حسي، عندما نمضي قُدُمًا في التعرف على خصائص الكاتب التعبيرية والأسلوبية، ونحاول أن نتأكد من اطِّرادها في كتبه المنشورة، وسيأتي أثناء حديثنا عن اهتماماته العلمية ما سيسهم في ذلك، ونكتفي هنا بالإشارة إلى ما يمكن أن نسميه ظاهرة "اللازمة الكتابية"، وأقصد بها ما يكرره كاتب بعينه من مداخل وأساليب وتقنيات في مؤلفاته ومصنفاته، تجسد هذه الظاهرة في كتابنا، على سبيل التمثيل، واحدةٌ مؤداها: اتخاذ عد الألفاظ القرآنية المتصلة بموضوع بحثه تكأة لولوجه إليه؛ إذ يبتدئ بِعَدِّ لفظة النصر وما يتصرف منها، ويزعم أن أحدا لم يسبقه إلى استخراج ذلك والكلام عليه (ص5)، وهي بعينها في الصفحة الأولى من صفحات كتابه: "استخراج الجدل من القرآن" (تحقيق: زاهر بن عواض الألمعي)؛ إذ يفتتحه بِعَدِّ ألفاظ الجدل والحجة والسلطان في القرآن الكريم؛ مشيرا إلى أنها جميعها قد جاءت محملة بمعنى الحجة.

- 2 -

المؤلِّف

بإيعاز من حالة الثقة التي أشعْناها أثناء حديثنا عن توثيق نسبة الكتاب؛ يمكن الآن التعريف بمؤلِّفه على النحو الآتي: هو أبو الفَرَجِ، عبدُ الرَّحْمن بن نَجْمِ بن عبد الوهَّاب بن عبد الواحِد بن محمَّد بن علي بن أحمد، الأَنْصارِيُّ الخَزْرَجِيُّ السَّعْدِيُّ العُبَادِيُّ، الشِّيرازيُّ الأصل، الدِّمَشْقِيُّ المولد والوفاة، المفسِّرُ الفقيهُ المحدِّثُ المؤرِّخُ الواعِظُ، المشهورُ بابن الحَنْبَلِيِّ، والـمَنْعُوتُ بالناصِحِ أو بناصح الدِّين[1]، وُلِدَ ليلةَ الجمعة سابع عشر من شوال، في عام 555هـ[2]، وارْتَحَلَ في طلب العلم وسماعه، وطَوَّف مِنْ أجل ذلك في كثير من بلاد المسلمين، ودرَّس وصَنَّف وأفتى، وإليه انتهت

---

(1) عند الفاسي في: ذيل التقييد، 2/ 103، أنه "ناصر الدين" بدلا من "ناصح الدين"، وهو في ظني خطأ طباعي، على أن تكراره بهذه الصورة الخاطئة مرة في متن الكتاب ومرة في فهارسه قد يشي عن قراءة غير صائبة من لدن المحقق نفسه.

(2) اعتمدت هنا رواية الدُّبَيْثي (تلميذه) وابن الشعَّار (معاصره) وابن طولون، بسبب مِن أن الأوَّلَيْن يرويانها عن ابن الحنبليِّ نفسه وأن الأخير متخصص في تاريخ المنطقة التي ينتمي إليها، انظر: الذهبي: المختصر المحتاج إليه من تاريخ أبي عبد الله (ذيل تاريخ بغداد؛ للدبيثي)، ص245، وابن الشعار: قلائد الجمان، 2/ 263، وابن طولون: القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، ص240، وهي رواية في الواقع مخالفة لمعظم من ترجموا له؛ إذ نصوا على أنه ولد في عام 554هـ.

رئاسةُ المذهب الحنبلي بالشام في زمنه، وكانت وفاته يوم السبت ثالث[1] المحرم عام 634هـ عن عمر يقارب الثمانين عامًا، ودُفن بتربة أسرته بسَفْحِ جبل قاسِيُون.

الحق أنني لستُ أبتغي في هذه الصفحات كتابةَ ترجمة عن ابن الحنبلي، رحمه الله، فقد يكون لذلك موضعه فيما بعد، وإنما الذي يعنيني فحسب ويشغلني في هذا المقام هو إضاءةُ بعضِ الجوانب التي تُعين قارئ كتابه على التجاوب مع موضوعه ونصوصه، واستكناهِ العوامل التي أنتجتْ المؤلف وأسهمتْ في صياغته، لتتجلى لنا

(1) في بعض المصادر أنه في غرة المحرم، انظر: سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، 8/ 702، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 6/ 298، وبرغم أهمية رواية سبط ابن الجوزي قرينه؛ فقد عولنا على روايات كلٍّ من: الدبيثي (الهامش الفائت)، والمنذري (تلميذه): التكملة لوفيات النقلة، 3/ 429، وأبي شامة (معاصره): الذيل على الروضتين، ص196، وسقط من الأخير لفظة "المحرم"، وعنهم فيما يظهر الذهبي: سير أعلام النبلاء، 23/ 6. وننبه هنا على خطإٍ وقع في كلام محقق كتاب الذيل على طبقات الحنابلة، أثناء تعليقه على مواطن نَقْل ابن رجب عن كتاب الاستسعاد لابن الحنبلي؛ إذ يقول: "وآخر ترجمة نقل فيها عنه ترجمة إبراهيم بن محمد بن الأزهر (ت: 641هـ)، قبل وفاة الناصح بثلاث سنين"، انظر: عبد الرحمن بن سليمان العثيمين: مقدمة المحقق (منشور بين يدي كتاب الذيل)، 1/ 78، وكأني به قد غفل عن مضمون النص المنقول؛ الذي يشير فحسب إلى سبب تولي ابن الأزهر دار الحديث، بعيدا عن أي إيماء إلى أن الناصح ابن الحنبلي قد عاش بعده، ومهما يكن فالخَطْبُ هيِّنٌ إذ المحقق الفاضل جرى في غير موطن على القول بوفاته عام 634هـ.

المحرِّضات الدافعة به إلى تصنيفه وإلى الاشتغال بهذا الحَقْل المعرفي، وهذه في اعتقادي هي الوظيفةُ الرئيسةُ لدراسة بين يدي كتاب. تأسيسًا على ذلك؛ قد يمكن التوقف في البدء عند أسرته: آل الحنبلي التي أرْفَدَتْ مسيرةَ العلم بكثرة غامرة من العلماء، على نحوٍ يحيلنا على ما يُعرف بظاهرة بيوتات العلم[1]، حتى لقد دفع هذا الأمرُ السلطانَ صلاحَ الدين الأيوبي (ت: 589هـ) إلى أن يقول، بحضرة نجم بن عبد الوهاب (ت: 586هـ) والدِ المصنِّف، وحضرة الشريف الجَوَّاني النسَّابَة: "هذا الفقيه [يشير إلى والد الناصح] ليس في آبائه وأجداده صاحب صنعة إلا أمير أو عالم إلى سعد بن عبادة!"[2]، ودفع واحدًا مثل ابن الشَّعَّار (ت: 654هـ) إلى أن يقول عن بيتهم: "من أشهر بيت بدمشق في العلم وأكبره"[3].

---

(1) فيما يخص بيوتات المذهب الحنبلي، انظر: بكر أبو زيد: المدخل المفصل إلى فقه الإمام أحمد بن حنبل، ص510- 580.

(2) انظر: ابن رجب: الذيل على طبقات الحنابلة، 1/ 156، ووقع في النص "الناصح" بدلا من "والد الناصح"، في حين جاءت بالصورة الأخيرة في النسخة التي حققها محمد حامد الفقي، وهي الصورة القريبة في نظري إلى سياق الرواية؛ التي يبدو صاحبها غير حاضر لهذا المجلس، انظر: ابن رجب: الذيل على طبقات الحنابلة (تحقيق محمد حامد الفقي)، 1/ 69.

(3) انظر: ابن الشعار: قلائد الجمان، 2/ 263.

ربما يكفي، إذا أردنا اختبار مقولتَي السلطان وابن الشعار، أن نعود إلى تأمل نسبه الذي أثبتناه آنِفًا؛ لنكتشف أننا أمام أسماء ليس فيها إلا من يضرب في العلم بسهم وافِرٍ، فجد أبيه: عبد الواحد الزاهد (ت: 486هـ)[1]، على سبيل التمثيل، هو من كان سببا في ذيوع المذهب الحنبلي في ربوع الشام، ومن ثم صار أوَّلَ شامي مترجَمًا له في طبقات الحنابلة، ألف من الكتب: الجواهر في التفسير والمبهج والإيضاح في الفقه والتبصرة في أصول الدين ومختصر في الحدود وفي أصول الفقه وغيرها، أما جده: عبد الوهاب الواعظ (ت: 536هـ)[2] فله من الكتب: المنتخب في الفقه والمفردات في الأصول والبرهان في أصول الدين ورسالة في الرد على الأشاعرة وغيرها، هذا فضلا إلى نشاطهم المتابع والملحوظ في حاضنات العلم الثلاثة: التدريس والإفتاء والمناظرة.

لم يكن العلمُ وحده هو إرثَه عن آبائه، فقد يظهر أنه انسربت إليه معه جينات الرُّوح المصادِمَـة للانحراف، التي شَخَصَتْ بصورة مبدئية في الصدع بكلمة الحق، وتَجْلِيَةِ المبادئ والقِيَم، بعيدًا عن رغباتِ التَّمَلُّق والتَّزَلُّف؛ ومؤلفاته التي يجيء على رأسها كتابه

(1) انظر: ابن رجب: الذيل على طبقات الحنابلة، 1/ 153- 164.

(2) انظر: ابن رجب: الذيل على طبقات الحنابلة، 1/ 446- 453.

"الإنجاد في الجهاد" خيرُ شاهِدٍ على ذلك، وبَلَغَتْ ذروتُها بالمشاركة في صفوف المجاهدين؛ إذ حضر مع صلاح الدين فتحَ بيت المقدس (في عام: 583هـ)، وإذن فلم يكن من أولئك المفتونين بالتنظير الجاف، وهواةِ تَرَقُّب الأحداث دون خوض التجارب؛ بل كان من الذين يطمحون إلى المزاوَجَة بين القول والعمل، خاصة إذا كان هذا العملُ هو البرهانَ الوحيدَ على تشبُّعِ صاحبه بمضمون رسالته؛ وسوف يقابلنا إذا استعرضنا سيرة آبائه ما يُجَذِّر هذه الوجهةَ ويَدْعَمُها، فمن ذلك، على سبيل التمثيل، ما يُروى عن جده عبد الواحد أنه كان يدعو على بعض السلاطين من المخالفين، ويقول: كم أرميه ولا تقع الرميةُ به! فلما كان في الليلة التي هلك ذلك المخالفُ فيها، قال لبعض أصحابه: قد أصبتُ فلانا وقد هلك، فلما كان بعد بضعة عشر يومًا وَرَدَ الخبر بوفاة ذلك الرجل في الليلة التي أخبر بهلاكه فيها![1] ومن ذلك ما يَرْويه ابن الحنبلي لنا، من دخوله على أبيه في مرضه الذي مات فيه وبكائه عليه، وقول أبيه له مسريا عنه: "لا تحزن علي؛ أنا ما توليت قضاء، ولا شحنكية[2]، ولا

(1) انظر: ابن رجب: الذيل على طبقات الحنابلة، 1/ 159.

(2) الشُّحْنَةُ والشُّحْنَكِيَّةُ فهي وظيفةٌ يسمَّى متوليها صاحب الشحنة وهو رئيس الشرطة والموكل بالأمن في بلد من البلاد، انظر: محمد قنديل البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص193، وهو يحيل على:

Dozy: supplément Aux Dictionnaires Arabes

حبست، ولا ضربت، ولا دخلت بين الناس، ولا ظلمت أحدًا، فإن كان لي ذنوب فبيني وبين الله عز وجل، ولي ستون سنة أفتي الناس، والله ما حابيت في دين الله تعالى"[1].

إذا رُحنا الآن نقلِّب النظرَ في أسرته الكبرى، وأقصد العلماء الذين تَلْمَذَ لهم وتأثر بهم؛ فسوف يتضح لنا أن المناخ قد كان مهيَّأً لصياغته على هذا النحو الذي ذكرنا، ففي كل بقعة من بقاع المعمورةِ الخاضعة لسلطان المسلمين تنتشر المساجد القائمة على نشر العلم والمعرفة، وفي واحد منها ببغداد، هو مسجد الفقيه ابن الـمَنِّيِّ نصر بن فتيان (ت: 583هـ)[2]، حَطَّ ابن الحنبلي رحلَه؛ ليرتادَ

(1) انظر: ابن رجب: الذيل على طبقات الحنابلة، 2/ 372، وابن الحنبلي: الاستسعاد بمن لقيت من صالحي العباد في البلاد (منشور ضمن: شذرات من كتب مفقودة في التاريخ؛ تحقيق: إحسان عباس)، ص201، بتصرف واختصار، وننبه أننا ستتصرف في النصوص التي سننقلها عنه فيما يأتي من دراستنا. هذا وقد ضبط محقق الذيل هذا النص بالبناء لغير الفاعل في فعلَي: "ضربت" و"حبست"، والأقرب في نظري أن يكونا مبنيين للمعلوم؛ ليتساوقا مع مقام فرحه ببعده عن الولايات وما لا يَنْفَكُّ عنها عادة من إلحاق الظلم والتعسف بالرعية.

(2) ابن الـمَنِّيِّ هذا هو شيخ الشيوخ وأستاذ الأساتذة، تخرج به سادة الدنيا في وقته من العلماء وفقهاء الحنابلة، ويكفي في ذلك معرفة أن مجلسه كان يضم أمثال: ابن قدامة المقدسي (ت: 620هـ) والحافظ عبد الغني المقدسي (ت: 600هـ) وأبي بكر الحلاوي (ت: 611هـ).

بوساطة هذا الشيخ الفقيه فضاءات رحبةً من الفهم وطيِّبِ الخِصال كليهما، وحتى نُدرك أثرَه البالِغَ الذي تَرَسَّب في رؤيته للحياة، فلنَدَعْه يسجِّل أخباره ويبث انطباعاته، يقول عنه: "أفتى ودرس نحوا من سبعين سنة، ما تزوج ولا تسرى، ولا ركب بغلة ولا فرسا، ولا ملك مملوكا، ولا لبس الثياب الفاخرة إلا لباس التقوى، وكان أكثر طعامه يشرب له في قدح ماء الباقلا. كان رحمه الله كثير الذكر والتلاوة للقرآن لاسيما في الليل، مكرما للصالحين، محبا لهم، ليس فيه تيه الفقهاء، ولا عجب العلماء، إن مرض أحد من تلامذته ومعارفه عاده، أو كانت لهم جنازة شيعها ماشيا غير راكب، على كبر السن وضعف البنية، زاهدا في الدنيا يقنع منها بالبلغة، وإذا جاءه فتوح أو جائزة من بيت المال وزعها بين أصحابه، وإن ناله منها شيء أعاده عليهم في غضون الأيام، و[قال لي]: حصل لي من ميراث والدي عشرون دينارا، فاشتريت بها شيئا وبعته فأربحت، فخفت أن تحلو لي التجارة فأشتغل بها، فنويت الحج فحججت، وتجردت للعلم"[1].

إلى جوار المساجد كانت هناك المدارس والرُّباطات والزوايا والخَانْقَاهَات، التي تلقِّن العلم وتَكْتَنِف طلابَه، وتَمُدُّهم بِمَدَدِ اليقين

---

(1) انظر: ابن رجب: الذيل على طبقات الحنابلة، 2/ 356، 357، وابن الحنبلي: الاستسعاد، ص202، 203.

والإيمان، كما تستقبل الجموع بغية إعدادهم نفسيًا وسلوكيًا والدفعِ بهم إن لزم الأمر إلى ساحات الوَغى، ونحن في الواقع نرتكب مغالَطةً حين نتخيل وجودَ جُدُرٍ صفيقَةٍ بين هذه المؤسَّسات، وحين نتصور أن مجرد التَّخالُف الكائنِ بين أسمائها يحيلها جُزُرًا مُنعَزِلَة؛ تتفاصَلُ مهماتها التي تقوم بها، فالصورة التي يشهد بها التاريخ الإسلامي تَنْفِي هذا، لاسيما في مرحلة الإفاقة بعد الهجوم الصليبي الغاشم، إذ كانت الجموع على اختلاف المشارب في تلهُّفٍ إلى اللحظة التي يمكنهم الله فيها من رقاب عدوهم، تنتظمهم حركةٌ آخذة بمبدإِ التكامُل والتَّرابُطِ. وفي واحد من هذه **الرباطات** ببغداد أيضا، هو رباط الشيخ أبي الثناء محمود بن عثمان (ت: 609هـ)، الذي عُرِف بأنه كان مأوى للفقهاء والصالحين والفقراء- نزل ابنُ الحنبلي مُدَّة، ومن حَقِّه علينا هنا كذلك أن نستمع إلى ملاحظاته المسجَّلة ونحيا معه تجربته الثرية، يقول ابن الحنبلي: "لما قدمت بغداد سنة اثنتين وسبعين [وخمسمائة] نزلت الرباط، ولم يكن فيه بيت خال، فعمرت به بيتا وسكنته، وكان الشيخ محمود وأصحابه ينكرون المنكر ويريقون الخمور، ويرتكبون الأهوال في ذلك، حتى إنه قام أنكر على جماعة من الأمراء، وبدد خمورهم وجرت بينه وبينهم فتن، وضرب مرات، وهو شديد في دين الله، له إقدام وجهاد، وكان كثير

الذكر، قليل الحظ من الدنيا، وكان يسمى شحنة الحنابلة، وكان يهذبنا ويؤدبنا وانتفعنا به كثيرا"[1].

بغدادُ في التجربتين مجردُ نموذجٍ، وإلا فإن استعراضا سريعًا لقائمةِ العلماء الذين التقاهم في بلدانهم وغير بلدانهم، لَيكشف عن الحجم الكبير لسَفَراتِه التي أَسْهَمَت في شخصيته وتَكْوِينِها الـمَعْرِفِيِّ والسُّلُوكِيِّ، فقد جاء مصرَ مرتين ودخل حلب وإربِل وإصبهان وهمدان والمدينة النبوية ومكة؛ وبرعايته لهذه التجارب وتدوينه اليقظ لانطباعاته عمن لقيهم في كتابه: "الاستسعاد بمن لقيت من صالحي العباد في البلاد"- لحق بركب المؤرخين الرحَّالة؛، وفي بعض نصوصه سنصادف ينابيعَ هذه الرُّوح التي نتعقَّبُها، في مثل قوله عن أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن الحسين الهَرَوِيِّ (ت: 590هـ): "كان رجلا صالحا، سمعت منه بقراءته جزءا بمكة، وكان في عزمي أنني أدخل اليمن، وقد هيأت هدية لصاحبها من طرف دمشق،

---

(1) انظر: ابن رجب: الذيل على طبقات الحنابلة، 3/ 133، 134، وابن الحنبلي: الاستسعاد، ص200. وكلمة شحنة إما أن تكون بالمعنى الذي ذكرناه قبلا، وفي المعجم: "شِحْنَة الكَوْرَة هم مَنْ فيهم الكفاية لضبطها من أولياء السلطان"، انظر: لسان العرب، ص2209، والمقصود أنه كان يقوم فيهم مقام أولياء السلطان في رعيته؛ بضبط سلوكهم وتهذيبه، وإما أن تكون، وهو بعيد، بمعنى من يملؤهم بما هم في حاجة إليه من أمر الصلاح والخير.

فاستشرته، فقال: أنت أعلم! ثم قال: قرأنا هاهنا جزءا من أيام، فجاء فيه عن بعض السلف: علامة قبول الحج أن الإنسان ينصرف عن مكة غير طالب للدنيا؛ فزهدت في اليمن، ورجعت عن ذلك العزم، وذلك سنة تسع وثمانين [وخمسمائة]"[1].

أكبر الظن أن هذه الأجْواءَ التي أحاطَت به في أسرتيه، الصغرى والكبرى، فضلا عن آثارها الفائتة، كانت أيضا عامِلا رئيسًا في صياغة معالم **نقده الاجْتِماعِيِّ ومَنْهَجِه الإصلاحيِّ**، الأمر الذي تجَسَّد تارة في كتاباته وقراراته، كما تجسد تارةً أخرى في بعض أحكامه على معاصريه ومواقفه من أفعالهم، سواء في ذلك هذه التي نفهم منها الإقرارَ وتلك التي نرى فيها الرَّفْضَ، من ذلك، على سبيل التمثيل، قوله عن نصر الله بن عبد العزيز ابن صالح بن عَبْدُوس الحَرَّاني (ت: 600هـ): "لقيته بدمشق وحران، وكان فقيهًا صالحًا ينقل المذاهب جيدا، وكان ينكر المنكر، ضربه مظفر بن زين الدين [ت: 630هـ] على الإنكار ثم ندم واستغفر منه، وأحسن القاضي الفاضل ظنه به"[2]، وهي عبارة تعكس إكباره لشجاعته

---

(1) انظر: ابن رجب: الذيل على طبقات الحنابلة، 3/ 409، 410، وابن الحنبلي: الاستسعاد، ص199.

(2) انظر: ابن رجب: الذيل على طبقات الحنابلة، 2/ 551، 552، وابن الحنبلي: الاستسعاد، ص205.

وقيامه بالحق وصبره على الأذى في سبيله، ومن ذلك، على الصعيد الآخر، غَمْزُه الحافِظَ أبا موسى عبد الله بن عبد الغني المقدسي (ت: 629هـ) باتصاله بالسلاطين والانقطاع إلى الملك الصالح[1]، وهو حكم يُكَرِّس الموقِفَ المتحفِّظَ إزاء هذه المسألة الشائِكَة؛ طَلَبًا لسلامة الدِّين، وحِفاظًا على الأمانة التي في أعناق العلماء: تجاه الشرع والشعوب، وتفعيلا لكثير من النصوص الموروثة التي تحدو بمحتذيها إلى الترفع عن هذه المواطن.

على أن هذا الحكم الأخِيرَ، لِلحَقِّ، يَسْتَدْعِي الحديث عن النَّقد الذي سدَّده إليه ابن رجب (ت: 795هـ)، فقد رأى فيه دليلا على الانْفِصام في شخص صاحبه؛ إذ كان ابن الحنبلي فيما يقول ابنُ رجب أَكْثَرَ مَيلا من الحافظ أبي موسى إلى الملوك![2] ولست أريد

---

(1) انظر: ابن رجب: الذيل على طبقات الحنابلة، 3/ 397، 398.

(2) انظر: ابن رجب: الذيل على طبقات الحنابلة، 3/ 398، وهو أيضا النقد الذي سدده ابن رجب إلى سبط ابن الجوزي (ت: 654هـ) حين يقول عن أبي موسى: "وكانت أحواله حسنة حتى خالط أبناء الدنيا والصالح إسماعيل؛ فتغيرت أحواله"، انظر: سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، 8/ 675، وقبل أي شيء ينبغي أولا فَضُّ إشكال ما قد ينشأ عند من لا دراية له بالتاريخ من تسوية ظالمة بين الرجلين، بوساطة استحضارنا ما كان بينهما من انفراج في الطبائع؛ إذ المعروف أن صلات سبط ابن الجوزي بالملوك كانت مصحوبة بغير قليل من المداهنة، وفي ذلك يقول ابن تيمية: "كان يصنف بحسب مقاصد الناس؛ يصنف للشيعة ما يناسبهم ليعوضوه بذلك، ويصنف=

هنا أن أُنصِّب من نفسي محامِيًا عنه في تهمة قد يكون تَلَبَّس بها، لكنني في الوقت نفسه أود أن أَلْفِتَ إلى بعض المعايير التي يتوقف عليها تكوين الحكم المخلَّصِ من الهوى والتحامُل؛ فمنها تحديد هُوِيَّةِ الملوك الذين اتصل بهم؛ فإن كان يقصد أمثال صلاح الدين، فما الذي كان سيدعوه إلى الامتناع عن صلته؟! ومنها معرفة طبيعة الحاجة التي دفعتْه إلى هذا، وهل تعود على الأمة في دينها ودنياها أو تعود على مآربه الخاصة؟ ومنها رصد الأضرار المترتبة على هذا الصنيع؛ لموازنتها بحجم المصالح المرجوَّة التي حَثَّ عليها الشَّرْعُ لا التي يتوهمها المرء. وحين نستوفي هذه المعايير ومثيلاتها سنَتَمَكَّن من تكوين الحُكْمِ الصادِقِ على فعلته هذه، كما ستمكن أيضا من الحكم على فعلته الأخرى؛ التي صَدَرت عنه أثناء الصراعات الدائرة بين الملك الأفضل بن صلاح الدين الأيوبي (ت: 622هـ) وعمِّه الملك العادل (ت: 615هـ)، وهو حدث سيكون له ذكرٌ في رسالته التي بأيدينا؛ فقد كان ابنُ الحنبلي مناصِرًا أولَ الأمْرِ للأفضل، فلما

=على مذهب أبي حنيفة لبعض الملوك لينال أغراضه، فكانت طريقته الواعظ الذي قيل له: ما مذهبك؟ قال: في أي مدينة؟!"، انظر: ابن تيمية: منهاج السنة النبوية، 4/ 98، فأين هذا كله من سيرة ابن الحنبلي؟! صحيح قد جاءت روايات تشير إلى تنافسه مع بعض أقرانه للاتصال بالسلاطين، لكن سيظل في النفس شيء من قبول تفاصيلها، إذ كان سبط ابن الجوزي في آن هو الراوي لها كما كان هو ذلكم القرين!

كانت الغَلَبَةُ للعادل اعْتَذَرَ له وأَقَرَّ بخطئه وطلب العفوَ[1]، إذ ربما نرى في شَطْرِ الرواية الأوَّل تَرْجِيحًا شَرْعِيًّا لإمارة الأفضل أو وفاءً لصلاح الدين، وفي شَطْرِها الآخَرِ الإقرارَ بالعدول عن الصواب أو التحدُّثَ بما لا يَعْتَقِدُ من باب التَّقِيَّة.

لكنْ هَبْ أنه كان حقًّا مُخطِئًا خطأً محضًا فيما صنع، وأنه كان بالفعل قد وصَلَ سلاطِين على الوَجْه نَفْسِه الَّذِي يُنكره، وأنه كما ذكرت هذه الروايات التاريخية كان يَطْمَعُ في منصِب القضاء الذي وعده به الأفضل، وأنه كان ينبغي عليه النَّأيُ بنفسه عن هذه الفتن التي وقعت بين المسلمين أنفسهم، هب هذا كله؛ فإنه لن يشكل ساعتها شيئًا أكثر من نُتوءاتٍ طارِئَة على مسيرته، ربما تستطيع أطرافُ سيرته المنبسِطة تسويتَها، وسوف نظل مُستحضِرين بالرغم منها أن إنكار أفعال الآخرين المذمومة حتى لو كنَّا نأتِيها، والاعترافَ بأخطائنا حتى لو كنا مقيمين عليها- أفضلُ من السكوت المفضي إلى إلفها واتخاذها عادةً جارية، خاصة في حق العلماء الذين يقتدي الخلق بهم؛ وعلى هذا الوجه وحده فحسب يَجِبُ أن نحمل انتقاد ابن رجب، وليس على أنه دعوة إلى كفِّ اللسان عن إنكار أخطاء غيرنا، بحُجَّة أننا أيضا لا ننْفَكُّ عنها.

---

(1) انظر: سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، 8/ 468، 469.

يبدو أننا كَلَّفْنا أنفسَنا عَنَتًا؛ إذ كان بوُسعِنا أن نعود تارة أخرى إلى نِطاق أسرته التي نشأ بها؛ لِندرك أن اتصاله بالملوك والسلاطين لم يكن سوى **امتدادٍ لعَلاقَة قديمةٍ**، آتتْ ثمارَها الحسنةَ على مستوى العِلم وخدمة المسلمين، وكان ينبغي لها، على الأقل في وجهة نظره، أن تستمر، وللتدليل على ذلك وتوضيحه يمكن التوقف، على سبيل التمثيل، عند نموذج سابِقٍ: هو ما كان من شأن جَدِّه عبد الوهاب الواعِظ، وكانت له حُرمة عند السلاطين والملوك، أثناء غَزْوِ الصليبيِّين دمشقَ في عام 523هـ؛ إذ كان هو الرسولَ الذي أرسله بُوري بن طُغْتَكِين صاحبُ دمشق إلى الخليفة المسترشد ببغداد لِيستنجده على الفِرنْج، فخَلَع عليه ووعده بالنُّصرة والنَّجْدة[1]، ونتوقف عند نموذج لاحِقٍ: هو ما كان من شأن ابنته أَمَةِ اللطيف (ت: 653هـ)، التي كانت في خدمة ربيعة خاتون (ت: 643هـ) أخت السلطان صلاح الدين الأيوبي؛ إذ هي التي أشارَتْ عليها ببناء المدرسة الصاحبة أو الصاحبية بسفح جبل قاسيون[2]، فاستجابت لها وبنتها ووَقَفَتْها على ابن الحنبلي والحنابلة، وابتدأ هو التدريس فيها

---

(1) للمزيد؛ انظر: ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، 13/ 254، وابن النجار: ذيل تاريخ بغداد، 1/ 349.

(2) انظر: النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، 2/ 70، 71، 80- 82. ويمكن مراجعة أخبار هذه المدرسة بصورة عامة في: 2/ 79- 86.

عام 628هـ، وظاهر أن هذا النتاج السائغ لم يكن ليستوي على سوقه لولا سِقايَتُه من قِبَلِ الجِهازَين المركزيين الداعمين لأي حركة إصلاحية ذات مرامي كبيرة: جهاز الأمراء وجهاز العلماء، وإذن فلا غَرْوَ ولا ضَيرَ من أن يقول الصَّفَدِيُّ عنه: "وخالط الملوك وروسل به إلى الأطراف"[1]!

إن ابنَ الحَنْبَلِيِّ بصُورَةٍ مجمِلَةٍ، كما يتراءى لنا في النصوص والأخبار التي حاولنا جَدْلَها[2]، كان نموذجًا للعالِم الذي ورث العِلْمَ عن آبائه رائقًا هَنيئًا، كما وَرِثَ معه كذلك الروحَ الرافضة للانحراف الدافعةَ بالمرء نَحو المِثال، وأسلمتْه ظروفُه المحيطةُ به إلى حالةِ المصالحة مع النفس، في مَرْباهُ ومَنْشَئِه بجوارِ إخْوانِه الملتفِّين حَولَ أبيه، وفي سَفَراتِه التي لَقِيَ فيها أقْرانَه المخلِّفِينَ بَصَماتِهم الحَسنة

(1) الصفدي: الوافي بالوفيات، 18/ 292.

(2) نشير هنا إلى أننا تحاشينا الاستزادة من مصادر لم تكن لتفيد في شيء سوى إثقال الهوامش؛ لأن بعضها متأخِّر وبعضها ينقل نقلا حرفيا وبعضها ينشغل بموضوعات جانبية، وإن كانت قد أفادتنا على أية حال في التأكد من صحة ما نقلنا، ونذكر منها على سبيل التمثيل: الذهبي: العبر في خبر من غبر، 5/ 138، وتاريخ الإسلام، 196-198، ودول الإسلام، 2/ 137، واليافعي: مرآة الجنان، 4/ 86، وابن كثير: البداية والنهاية، 13/ 171، 172، والمقريزي: المقفى الكبير، 4/ 80، 81، وابن مفلح: المقصد الأرشد، 2/ 113- 115، والعليمي: الدر المنضد، 1/ 376، وابن العماد: شذرات الذهب، 5/ 164- 167.

في نفسه، وجَلَسَ فيها لِشُيوخِه الذين تَخَرَّج بهم سادةُ الدنيا في العلم والعمل، وأيضا في الحروب الدائرة رَحاها بين المسلمين والصليبيِّين المعتدَين، التي لوَّنَتْ العصرَ وكتاباته بألوانها، فتَماشَجَتْ من ثم مَسيرَتاه العِلمِيَّة والعَمَلِيَّة، وانسَجَمَتا مع مقرَّراته المستمدَّة من الشرع الحنيف التي أعَلَنَها مرارًا، لولا ما كان من شأنِ اقْتحامِه ميادينَ وعِرَةً غيرَ مَمْهودَةٍ؛ قَلَّ من يعود منها سالِمًا، وليس بنافعه اليوم تمني المخلصين له أنْ لو كان انتحى عنها ولم يَلِجْها؛ فرَحِمَ الله الإمام وغَفَر له، ونفعنا بعلمه..آمين!

- 3 -
الكِتاب

3 / 1 / الروافد والمضامين :

يكشف سجل المصادر التي اتصل بها المؤلف في هذا الكتاب، على صغر حجمه، عن ثقافة كاتبٍ يطمح إلى أن تكون شاملة مستوعبة، من حيث كونها تنتمي إلى حقول معرفية شتى: التفسير والحديث والسيرة والتاريخ والسياسة والأدب، هذا فضلا عن الكتب التي تبدو عَصِيَّة على التصنيف؛ وبينما كان المؤلف يصرح باسم بعضها، فإن التتبع لألفاظ رواياته ومنقولاته كان يكشف، أو يكاد، عما أغفل ذكره منها، ولعله من المفيد في هذا الشأن أن نضرب صَفْحًا عن تكرار أسمائها هنا، ونكتفي بتسجيل ثلاث ملاحظات مُهمة؛ **الأولى**: أن اتصاله بهذه الروافد كان يتفاوت قوَّةً وضعفًا، وبصورة مجملة: تحتل كتب السيرة والتاريخ والأخبار مكانةً بارِزَةً، **والملاحظة الثانية**: أنه قد أفسح في كتابه لرافد التجربة الشخصية والحكاية الشفهية، وهما ملاحظتان تسهمان، من وجهة نظري، في الكشف عن سعي المؤلف نحو تحقيق صفة الإقناع لرسالته، وكأني به يروج قناعاته المبثوثة بالاستناد إلى أنها ليست حبيسةَ نصوص متوارثة في الأذهان، وإنما هي تلك المتحركة

الـمُلْتَبِسةُ بواقع الناس وحياتهم، تستجلبها ذاكرة ابن الحنبلي أو تلتقطها عدسته؛ ليشركه القارئ في رؤيتها وتفسيرها، والملاحظة الثالثة: أنه كرر النقل عن مصادر مشكوك في صحتها، وأقصد نقله عن كتاب: "منافع القرآن" المنسوب لجعفر الصادق ﷺ، والذي يعنينا هنا هو أن النصوص التي نقلها ربما تصبغ النصر بألوان الهبات والـمِنَح، التي يُعطاها العبد دون أن يصنعها أو يكون سببا في تحققها، وهو شيء قد يجعلنا نتهم الكتاب بالتحريض على الاتكال وترك العمل، أو بأنه يرى كمثل كثيرين: أن النصر سيَتَنَزَّل بمجرد أن تلوك الألسنة بعض أوراد، وتفرقع الأصابع حبات المسبحة؛ لكن سيسهم في دفع ذلك تأمل هذه النصوص ذاتها وأسلوب معالجته لها وطريقة توظيفها، فهي- بعيدا عن صحتها وضعفها- لم تُوَجَّه إلا لمن خرج إلى الميدان بالفعل؛ لتتوافق مع منطق الكتاب الذي سنبينه بعد قليل، لا إلى أولئك المتربصين القاعدين؛ فإن كان نصرٌ حَشَرُوا أنفسهم في الصفوف وإن لم يكن فرحوا بمقعدهم.

وربما يكون من الخير الآن العودة لنبدأ من حيث يبدأ الكتاب، وأقصد من عنوانه: أسباب الظفر والانتصار، لا لنشرع بعدُ في عرضه أو تلخيصه، فهو قريب المنال من هذه الناحية، وإنما لنتمكن من تسجيل ملاحظتين محوريتين تكشفان عن طبيعة مضامينه وحدوده التي يقف عندها؛ أولاهما: أن مصطلح "السبب"، الذي

لجأ إليه ابن الحنبلي لسَلْك أفكاره، ليس يشمل جميع ما ذكر في كتابه، إذا تلقيناه بمعناه الأصولي أو الفلسفي الصارم الذي يحيل على نموذج العلة والمعلول[1]، وإنما نحن في حاجة إلى استقباله فضفاضا بدرجة ما، أو لنقل إلى استقباله في إطار دلالته المعجمية البسيطة المباشرة؛ التي تحيل معنويا على كل شيء يربط بين شيئين وتستدعي ماديا صورة الحبل الممتد بين طرفين؛ وبهذا الفهم سنتجوز في موافقته على أن تكون الرياح في وجه العدو سببا من أسباب النصر، مضموما إليها بغي العدو بوصفه سببا كذلك، وأن تكون قراءة العسكر سورة النازعات أو الأنفال سببا لنصرتهم، بمثل ما يكون طواف الأمير عليهم قبيل القتال وتحريضهم ورفع همتهم هو الآخر سببا؛ وعلى نحو مجمل إن مصطلح السبب سيبيت مكافئا لمعنى الأمارة والسنة الكونية والتدبير القتالي والإعداد الإيماني والفريضة الشرعية؛ ما دامت هذه الأشياء مرتبطة على نحو من الأنحاء بتحقق النصر.

أما الملاحظة الأخرى فتتعلق **بالفئة المستهدفة** التي يوجه إليها الكاتب كتابه؛ فتأمل هذه الأسباب بصورة كلية ينبئنا عن أنها ليست تلك التي سيأخذ بها مسلمون تفصل بينهم وبين فريضة الجهاد

---

(1) انظر: التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، 1/ 924- 926، وجميل صليبا: المعجم الفلسفي، 1/ 647- 650.

مَفاوِزُ؛ على المستوى المكاني أو على المستوى الزمني، وإنما هم أولئك الذين مضوا قدما بالفعل في هذا الدرب، وهو شيء ستؤكده لنا أول جملة في السبب الأول التي تقول: "الخُرُوجُ مِنْ مَظالِمِ النَّاسِ قَبْلَ الخُرُوجِ إلى العَدُوِّ، فإنْ ضاقَ الوَقْتُ فالنِّيَّةُ لِذلِكَ والعَزْمُ عَلَيْهِ" (ص6)، إن ابن الحنبلي الفقيه المجاهد سيتراءى متعجِّلا في مرايا بعضهم؛ إذ يرجئ، في حالة ضيق الوقت، فريضةَ الخروج من مظالم الناس إلى ما بعد أداء فريضة الخروج للغزو، وبكلمات أخرى: إنه لم يكن يَعْبَأُ أثناء كتابته بقارئ مشحون بمقولات التحريض على التربُّص، ريثما تتبدل الظروف من حوله وتفتح المغاليق والأبواب، ومن ثم خلت نصوص كتابه، إلا ما يمكن أن يُفْهم من فحواها، من الحديث عن تلك الأسباب التي يرنو إليها في أيامنا من يُدَشِّنُونَ مسوِّغات القعود؛ استنادا إلى ما يفهمونه عن فقه الاستضعاف وفكرة المرحلية ومبدإِ ترتيب الأولويات.

من النصوص ما سيفضي إليك بمكنونه بمجرد قراءته، ومنها ما سيحتاج إلى كثير من التنقيب في طبقاته التي تَكوَّن منها، وخوض رحلة مع التساؤلات المفترضة حول دلالتها المقصودة، لينعم- أو ربما لا ينعم- القارئ بعد ذلك باتصاله المأمول بما في نفس صاحبها، وإلى الصنف الأول تنتمي أكثر نصوص كتابنا، ولذا لسنا مضطرين إلى الاستكثار منها، وإلى الصنف الآخر تنتمي بعض النصوص؛

فتثير تساؤلات لسنا نملك على وجه التحديد إجابتها في الوقت الراهن، من ذلك عرضُه قتالَ طغرلبك لدبيس بن مزيد وقتال العادل للأفضل، في إطار بيان أسباب النصر؛ فهذه حوادث جرت بين فئتين مسلمتين، الأمر الذي يُخَلِّفَ ما يمكن أن يسمى صَدْعًا في آفاق توقُّعاتنا؛ إذ المرتقب لدى كثيرين أن تكون النماذج المضروبة بشكل دائم مشتملة على صَفَّين متمازَين عقديا، وبينما تثير الواقعة الأولى أسئلة حول تصوره عن قتال الخارجين على الدولة المسلمة، وكيف يجب حماية الوحدة من المعتدين العابثين، فإن الأخرى تثيرها حول الخروج نفسه وقتال الفئة الباغية، وإلى أي مدىً يُبرَّر هذا الفعل ولا يُعَد خرقًا للأصول والضوابط الشرعية.

3 / 2 / مشروع وبناء كلي :

يخطئ من يتخيل منا أن المؤلفين قديما كانوا يشتغلون بالعلوم بوصفها حلقات متفاصلة، أو أنهم كانوا يكتبون مصنفاتهم المختصة بعلم ما بعد أن يَنْفَلِتوا من نطاق بقية العلوم التي يشتغلون بها، كما يخطئ من يحاول دراسة كتاب لمؤلف ما في معزل عن كتبه الأخرى، التي تتضافر لتكوين ما يمكن أن توصفه النظرةُ الشموليةُ مشروعا. إن التأمل في مؤلفات أسلافنا يرُد هذا كله؛ شريطة أن نتلقاها بوصفها لبنات في بناء كلي لا بوصفها كيانات متخاصمة، ولست

هنا مشتغلا بالتأريخ للعلوم الإسلامية، ولا حتى بالحديث عن ابن الحنبلي ومؤلفاته، وإنما بالكتاب الذي أقدمه اليوم للنشر، وتأسيسا على ذلك فقد يمكن تحت هذا العنوان بصورة عَجْلَى اتخاذه مَرْكَزًا؛ ابتغاء تحديد موقعيته على خارطة تآليفه واستجلاء علاقتها به وتأثيرها فيه؛ لبيان تضافرها في مشروعه.

سيلقانا أولَ شيء كتابُه: "**الإنجاد في الجهاد**"[1]، والبيانات المتوفرة عنه تشي بأنه كتاب كبير، يحاول استيعاب الموضوعات المتصلة بفريضة الجهاد، سواء في ذلك الفقهيةُ منها والتنظيميةُ؛ وإذن فنقاط التَّماسِّ بينه وبين الرسالة التي بأيدينا بينة جدا، وتستبين أكثر بالوقوف على حجم الإحالات الكثيرة فيها إليه، بحيث يحق لنا الزعم أنها قد انبعثت إلى الوجود عن طريق تتبع صاحبها لواحد من الخيوط المعرفية الأكثر إلحاحا عليه أثناء تصنيفه هذا الكتاب. وفي هذا السياق يأتي اهتمامه **بالوعظ والخطابة**، إذ لم يرض بمجرد اشتغاله بهما على نحو مُنِحَ بسببه القبول الزائد في البلدان التي دخلها، بل عضد هذا الجهد العملي بجهد علمي توثيقي؛ فألف كتابه "تاريخ الوعاظ" وجمع، فيما يظهر، ديوانا في "الخطب" وآخر

---

(1) يذكر عنوان الكتاب في بعض المصادر بصورتين مغايرتين: "الأنجاد" و"الإيجاد"، أما الذي في نسخة ‹أ› لكتابنا الحالي فهو ما جرينا عليه؛ من كسر همزة كلمة "الإنجاد" هكذا، وكتابتها بالنون (الموحدة الفوقية) لا بالياء (المثناة التحتية).

في "الوعظ"، ويستولي علينا الظن بأن انشغالاته تلك كانت تتماس مع مشروعه الذي نستجلي وجوده؛ إذ من المفترض أن يكون قد أفسح المجال في الكتاب الأول منها لأمثال شيخه ابن الجوزي (ت: 597هـ) الحرض الكبير على الجهاد وطلب الشهادة؛ ومن المرتقب أن يحشد في كتابيه الآخرين ما يتلاءم؛ من الخطب والوعظ، مع طبيعة عصره الـمُكْتَظّ بحروبٍ يخوضها المسلمون ضد الصليبين، وربما يساعد في تألق هذا الظن أن ابن الحنبلي كانت له عناية خاصة بابن النبيه الخطيب (ت: 374هـ)؛ صاحب ديوان الخطب الجهادية المفعمة بالحماس، إذ كتب، فيما يبدو، كتابا أو مقالا اختصه بالدفاع عن بعض تعبيرات وردت على لسان ابن النبيه. وينخرط في السياق نفسه كتابُه: **"الاستسعاد بمن لقيت من صالحي العباد في البلاد"**[(1)]، الذي نقلنا منه أثناء حديثنا عن المؤلف ما يؤكد إسهامه في مشروع

(1) يعد هذا الكتاب في قائمة الكتب المفقودة، وقد احتفظ ابن رجب، في الذيل على طبقات الحنابلة، ببعض نصوصه منقولة من خط ابن الحنبلي نفسه؛ وقد جمع إحسان عباس هذه النصوص ونشرها في كتابه: شذرات من كتب مفقودة في التاريخ، بعد أن ضم إليها ما وجده في كتاب بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم، الذي نقل أيضا من الكتاب بخط ابن الحنبلي؛ ويبدو أن نصوصا أخرى في حاجة إلى أن تضم لهذه النشرة حتى تقترب من الكمال؛ كمثل تلك النصوص التي ينقلها ابن المستوفي عن خط ابن الحنبلي؛ إذ تنتمي في ظني إلى كتابه هذا، انظر: ابن المستوفي: نباهة البلد الخامل بمن ورده من الأماثل (تاريخ إربل)، 1/ 114، 116، 154.

رسالتنا، ونسجل هنا الظن بأن الكتاب كان لوحة حافلة بالصور المتجانسة، التي أبدعها الصالحون في عصره على اختلاف توجهاتهم وطبقاتهم، ولولا أن ابن رجب الحنبلي الذي احتفظ لنا ببعض نصوصه كان منشغلا بعلماء الحنابلة أثناء نقلِه عنه، لربما رأينا صدق ذلك وأدلته بصورة أكثر تماما ووضوحا.

أما بقية الكتب فتبدو مؤسِّسةً مشاريع أخرى، على أننا لا نعدم في الوقت نفسه آثارها المخلَّفة في رسالتنا، وفي هذا الشأن سيمكن التمييز بين ثلاث دوائر متكاملة؛ **الأولى**: دائرة اهتمامه بالقرآن وعلومه، يمثلها كتاباه في "التفسير" و"استخراج الجدل من القرآن"[1]، ونجد أثر هذا الاهتمام في استقصائه أطراف المعنى المستهدف، ولمساته اللطيفة لبعض الآيات (مثلا: ص61، 69)؛ ليستخرج منها ما يكاد يتفرد به، ومحاولة اتصاله الدائم بعموم اللفظ لا بخصوص سببه، وبفحواه لا بمعناه المباشر، **والثانية هي**: دائرة اهتمامه بالحديث وروايته[2] وعلومه، وفيها سنلقى كتابيه: "أسباب

---

(1) هذا الكتاب من أكثر كتب ابن الحنبلي شهرة وانتشارا؛ بسبب تكرار طبعاته وتحقيقاته، نذكر منها: تحقيق زاهر بن عواض الألمعي، وتحقيق محمد الحبيب الهايلة، وتحقيق محمد صبحي حسن حلاق.

(2) ولذلك نجد لابن الحنبلي ذكرا عند: الذهبي: المعين في طبقات المحدثين، ص278، والفاسي: ذيل التقييد، 2/ 103.

الحديث"[1] و"مختارات من المسند والبخاري ومسلم"، ونجد أثر ذلك في الروايات التي يرويها بألفاظ لم نوفق في العثور عليها؛ إذ تتوجه الاحتمالات إلى أنه كان يرويها من الذاكرة، أو من طرق غيرِ مشتهرة؛ فعَزَّت من ثم على طالبها، أما **الثالثة** فهي: دائرة اهتمامه باللغة وعلومها، التي بدأت تتشكل بنضج منذ اتصاله بأبي البقاء العُكْبَرِيِّ (ت: 616هـ)، وأخذت تؤتي ثمارها بتأليفه كتاب "الفروق في اللغة"؛ فضلا عن كتابته "أناشيد"[2] و"مقامات"؛ وهو اهتمام سيظهر أثره في استواء لغته إلى حد كبير وابتعادها عن الزخارف والطلاء الشكلي. وأخيرا سيكون بوسعنا العودة إلى الكتب التي عرضناها قبلُ؛ لنشير من جهة إلى لهجته الوعظية المستمدة من اهتمامه بالوعظ، ومن جهة أخرى إلى ما يتصل بذلك من اعتماده على الحكاية التاريخية الشفهية المؤثرة، المستمدة من تجاربه أو من مسموعاته.

---

(1) إن كان موضوع هذا الكتاب متصلا بالبحث عن الملابسات المحيطة بمخرج الحديث النبوي ومورده، فبه يغدو ابن الحنبلي من قلة قليلة صنفت في هذا الفن من علمائنا المتقدمين، انظر: السيوطي: أسباب ورود الحديث، ص65.

(2) احتفظ ببعض أبيات شعره ابن الشعار في: قلائد الجمان، 2/ 263، 264، رواية عن أحمد بن إسماعيل بن نجم الحنبلي.

3 / 3 / جدوى تحقيقه ونشره :

بِمُكْنَة قارئ الصفحات الفائتة استخلاص العناصر التي تشير إلى أهمية هذا الكتاب وجدوى نشره، وبرغم ذلك فلا بأس من أن أعدِّد بعضها على نحو مختصر، مع وجوب الاحتياط من تحميل الكلام ما لا يحتمل؛ بسبب ما ذكرناه عن حجمه الذي فَرَضَ عليه عدمَ استيعاب موضوعه؛ فمن هذه العناصر: أنه يحاول الإجابة على سؤال خطير (ما أسباب النصر؟) ذلك السؤال الذي لا يفارق مسيرة أمة تبتغي كريم الحياة، وأنه يكاد يكون متفردا بين كتب الأسلاف في هاجس تأليفه، مع إقرارنا بأن كتبا كثيرة تشاطِره الاهتمامَ بموضوعه، وأنه نتاج رجل ينتمي إلى مرحلة الإفاقة الإسلامية بعد فاجعة الغزو الصليبي، بل نتاج رجل شهد المعامع بنفسه وخط بيراعه ما استكن داخله، وأنه يبرز الالتحام الكائن قديما بين الأجهزة المختلفة: الثقافية والعسكرية، ويفضح في الوقت نفسه القطيعة غير المحمودة التي نرقبها الآن بين طرفين؛ يكتفي الأول منهما، دون أن يمارس عمليا التجربة، باتهام الطرف الآخر بالجهل، في حين يراشقه الطرف الآخر بتهم العمالة والممالأة، وأنه ينطوي على إبطال ما تلوكه بعض الألسنة من أطروحات دخيلة تدعي سعيها لنهضة الأمة، وأنه أخيرا سيكشف عن تراث لابن الحنبلي ربما يصح أن يوصف بأنه مجهول.

- 4 -

التحقيق

4 / 1 / منهج التحقيق :

تتشوف عملية تحقيق نصوص الكتاب ومعارفه إلى إخراجه في صورة هي الأكثر تطابقا، بحسب ظني، مع الصورة التي خلفها عليه المؤلف، وما يتصل بذلك من تقريبه إلى القارئ المعاصر، ولذا تمثلت خطواتها المنهجية فيما يأتي : **أولا**: مقابلة النسختين الخطيتين ورصد الفروق بينهما في الهامش، سواء أكانت صحيحة أم بينة الخطإ؛ لأن عملي لا يعدو أن يكون قراءة للنص، وللقارئ بعد ذلك أيضا قراءته، وقد ارتأيت أثناء تسوية المتن أن أبتعد عن تحكُمات اختيار النسخة الأم؛ نظرا لأن معايير: الأقدم والأكمل والأدق؛ وهي المعايير التي يُستند إليها في عملية الاختيار، لم تكن قابلة للتطبيق على نسخة منهما دون الأخرى، فكل واحدة كانت تستوفي شرطا كانت في الوقت نفسه تفتقر إلى آخر. **ثانيا**: الانطلاق الدائم من النص وألفاظه قدر الطاقة، وعدم إلحاق التغييرات به لمجرد مخالفته المبذولَ من القول؛ في الإملاء أو ضبط بنية الكلمة أو إعرابها؛ بالنظر إلى مرونة معايير الصحة اللغوية، وفي المنقولات من كتب الحديث وغيرها؛ مراعاة لاختلاف النسخ وتعدد طرق التحمل

والأداء، وتبيت وظيفة الهامش ساعتها هي الإفضاء بما يجول بالنفس حيال النص، إذا أبقيناه على صورته، ومع هذا فإنني لم أتردد في تصويب كتابة الآيات القرآنية جميعها، دون إشارة غالبا إلى ما كانت عليه صورتها في المخطوط، إلا لمزيد فائدة. **ثالثا**: محاولة عزو الأقوال إلى قائليها وتحديد مظانها بصورة دقيقة، سواء أشار المؤلف إلى ذلك أم لم يشر، مع استجلاب بعض ما يفيد منها في فك مغاليق فهم نصوص الكتاب، على نحو يحتفظ للنص بخصوصيته، وللهامش بوظيفته الفاعلة ولا يحيله كتابا متطفّلا على مجال الكتاب الأصلي، الأمر الذي استلزم التقيد باللفظ المذكور ما وسعني ذلك، واطّراح المتأخِّرِ من المصادر الذي يحتذي المتقدِّمَ منها غالبا. **رابعا**: عدم الاسترسال في تخريج الأحاديث والآثار، فليس تعداد المصادر في الهوامش، كما قد يظن بعضهم، مفيدا؛ لأنها متوفرة في أي كتاب، بل أيضا مكررة، وإنما المفيد هو تتبع لفظة المصنف نفسها، خاصة ونحن نقدم كتابا لا يعتمد آلية الرواية، ولم أحِدْ عن هذا إلا لضرورة؛ كأن يكون الحديث ضعيفا ونحن نبحث عن شاهد أو متابع عله يتقوى، أو غير موجود بلفظته في مصادرنا المتاحة ونحن نَحُومُ حوله، وحتى في هذه الحالات حاولت جهدي الاقتصار على ما يتم به المقصود. **خامسا**: إصدار الأحكام على الروايات بالصحة أو الضعف، سواء في ذلك المرفوعة والموقوفة والمقطوعة، بحسب القدرة

وتوفر المصادر، ومن الضروري هنا التنبيه على أن وصف الضعف الذي ألحقناه ببعض روايات ليس سوى اصطلاح لَهَجَ به المحدِّثون، وهو لا يعني سقوط مضمون الرواية؛ إذ قد يَنْجَبِر سندها أو متنها بروايات أخرى، كما قد يُتَرَخَّص في قبوله؛ لتعلقه بالتاريخ المحض لا بأحكام الشرع. **سادسا:** التعليق على النص ببعض كلمات تمثلت وظيفتها في ربط نصوصه بعضها ببعض، والاتساع بمفردات بحثه، وتقريب الفهم للقارئ، والامتداد بالدلالة لتلقي بظلالها على وقتنا الحاضر، وإقامة جسور بين زمن المؤلف وزمن المتلقي المعاصر، وقد كَبَحْنا جِمَاحَ القلم عن إغراءات الموضوع الثري؛ لتجيء هذه التعليقات، بحسب اجتهادي، ملائمة لحجم الكتاب. **سابعا:** أدرجت في النص عُنْوانات مستوحاة من مضامين أسبابه الثلاثين؛ ابتغاء الاستفادة بها على نحو أتم، والكشف عن مرجعياتها، وتحقيق التكيُّف مع طرائق العرض المعاصرة، والتمهيد لعمليات الفهرسة، كما أدرجت بعض البيانات الشارحة؛ أبرزها سنوات الوفاة لبعض الشخصيات من الأعيان؛ استغناء بها عن هوامش الترجمة المطوَّلة، وقد تم تمييز هذه الإدراجات كلها عن النص الأصلي. **ثامنا:** استخدام بعض الرموز الكتابية، التي بها تتم صناعة التحقيق وخدمة النص التراثي، وتوظيف إمكانات الطباعة في العصر الحديث، سيأتي بيانها في الفقرة الآتية.

4 / 2 / دلالات الرموز الكتابية :

- ‹أ›: في الهوامش للإشارة إلى نسخة الكتاب بدار الكتب المصرية.
- ‹ب›: في الهوامش للإشارة إلى نسخة الكتاب بمكتبة تشيستر بيتي.
- ( ): في النص لتكتب بينهما كلمات من إحدى النسختين الخطيتين أو كلتيهما، ويوضح الهامش المخصص لها ما يرتبط بها من بيانات.
- [ ]: في النص لتكتب بينهما كلمات مستجلبة من خارج النسختين الخطيتين، وما لم يعين هامشها مصدرا فهي من إدراجات المحقق.
- ‹ ›: في النص لتكتب بينهما أسماء الكتب والمصنفات، وفي الهوامش لتكتب بينهما رموز النسخ الخطية.
- ﴿ ﴾: في النص والهوامش لتكتب بينهما الآيات القرآنية.
- |←| و |→|: في النص للفصل بين لوحات النسخ الخطية، ويشير اتجاه السهم إلى مكان الحاشية الجانبية المتعلقة بها.
- أ/ : تكتب الألف بهذه الهيئة في الحاشية الجانبية للإشارة إلى نسخة دار الكتب، ويكتب بعد الخط المائل رقم اللوحة.
- ب/ : تكتب الباء بهذه الهيئة في الحاشية الجانبية للإشارة إلى نسخة تشيستر بيتي، ويكتب بعد الخط المائل رقم اللوحة، وعبرنا عن السقط فيها بأصفار.
- « »: في النص والهوامش ليكتب بينهما ما ينسب للنبي ﷺ من أقوال، سواء أكانت صحيحة أم ضعيفة، وسواء أُوُفِّقْنَا للعثور على لفظتها المذكورة أم لا.
- " ": في النص والهوامش لتكتب بينهما النصوص والمنقولات، سواء أكانت بلفظها أم بتصرف فيها.